

بغداد في العهد العثماني (3)

القنصليات الأجنبية تتدخل في الشؤون الداخلية والنزاعات والصراعات

صلاح عبد الرزاق

اسطنبول



كانت في بغداد عدة قنصليات تتولى شؤون رعاياها والإشراف على مصالح بلادها في بغداد. وكانت تراقب تحركات رعايا دولها القادمين لإيارة العراق سواء كانوا تجاراً أم رحالة أم متقني آثار أم غير ذلك. وكانت علاقة الدولة العثمانية بتلك الدول تنعكس على علاقة الولاية بمظلي كل الدول وديبلوماسيتها في بغداد. ولم تكن كل الدول مهتمة بإقامة علاقة دبلوماسية أو فتح ممثلية لها في بغداد. فالعراق كان مجردة مستعمرة عثمانية معزولة ومتخلفة لا يوجد ما يجذب فيها سوى آثار الحضارات القديمة أو التسابق لاستكشاف النفط.

كان الققيم الأجنبي يسمى (رزيست) وأصلها Resident بالانكليزية، كما يسمى الققيم بـ (بايون) وهي لفظة أجنبية Baylon أو باليوس Balios أو باليون Balioz وهي مشتقة من Balio الإيطالية (1).

كانت البعثات الدبلوماسية في بغداد هما القنصلياتان الفرنسية والإنكليزية. وكانت كل واحدة تهتم بشكل خاص بشركاتها وتشاطراتها وأسواقها، أو في توفير ممرات آمنة لتجارها الدولية وخاصة في الخليج. كان الإنكليز يمتازون بالجدية والعملية ولذلك حققوا نجاحات واضحة في العراق. أما الفرنسيون فقد اهتموا بالأنظار والمراسم والاحترام الرسمي والأبهة. كما أنهم فشلوا في إنشاء الطريق البري بين بغداد ودمشق بسبب عرقلة الإنكليز للمشروع على الرغم من نجاحهم في فتح أكبر ممر بحري دولي هو قناة السويس (2).



الرحالة الأمريكي وليم فوك

وإلحق بدار المستر ريج المجموعة السكانية وخاصة غير المسلمين كاليهود والمسيحيين. إضافة إلى التجار والوجهاء وشيوخ القبائل. كما كانت تتدخل في الشؤون الداخلية أو النزاعات والصراعات. تأسست القنصلية الفرنسية عام 1742م في بغداد. ومنذ ذلك التاريخ بدأ التفاعل الفرنسيون بيقومون في بغداد. إما إنشاء القنصلية البريطانية فقد جاء بعد نصف قرن على وجود الفرنسيين في بغداد. إذ تم تأسيسها عام 1797 م. وكان لها قنصلية أخرى في البصرة. كانت القنصلية البريطانية العامة في بغداد تقع على شاطئ دجلة. يصفها الرحالة جون أشر John Usher عندما دخلها عام 1864 بقوله (كانت بنائية كبيرة كثيرة الغرف والمرافق. وكان البعض من اجنتحتها مطلا على دجلة ومؤثراً باناث فخ جميل على الطراز الفرنسي الذي يتميز بوجود الكثير من المرائيا.



الوالي قدري أشا

وكانت البنائية تعود ملك أودة في الهند. وكانت تتولى حماية القنصلية مسفرة من جنود السباه التابعين للجيش الهندي في بومبي يبلغ عددهم 60 حارساً، أما خدمها فقد كان معظمهم من الهنود كذلك. وكان الققيم

القنصلية الألمانية يتخذ مكانه بجوار ضفة النهر (6). وهناك مصادر تشير إلى أن تعيين القنصل الألماني جاء عام 1894 بعد حادثة شهيرة في بغداد. إذ كان شاب ألماني يسكن بغداد من أسرة نبيلة. وفي ذلك العام قامت إحدى العوائل المسيحية العراقية برفع دعوى على هذا الشاب بحجة أنه لاط بـغلام لها كان تلميذاً في مدرسة الأبناء الكرمليين.

وقد انقسم المجتمع البغدادي إلى فريقين: فريق وقف ضد الشاب وفريق معه. وقد استعانت الحكومة الألمانية من هذه



ساحة الميدان بجوامع الاحمدية مطلع القرن العشرين

القضية فقامت بتعيين الشاب قنصلاً لها ببغداد كي تختل أن ريتشاردز برئى من تلك التهمة. وكان بذلك أول قنصل لألمانيا في بغداد.

منصب الوالي في بغداد بقيت بغداد تحكم من قبل الولاة العثمانيين، وأغلبهم لم يكن سوى عسكري يفكر بذمته. وكانت الفسوة والفسدة هي المظهر السائد في إدارتهم للعراق. ولم يكن الناس يذكرون منهم بعد عزيمتهم سوى موقف شديد لهم في مواجهة ثورة أو إدارة أزمة كالجماعة أو الوباء أو الفخضان. وفي أحسن الأحوال يتحركون في بناء قبة اثرأ يتمثل في بناء قبة في جامع أو غيرها.

يلاحظ أن العراق بقي في دور خمول والتجزؤ وانزواء عن المسرح الدولي والحدث التاريخي طوال تلك الفترة. وبقي العراق يعامل من قبل الحكومة العثمانية على أنه بلد منزوي ليس مؤثراً سوى ما



يجمع منه من ضرائب أو يساق أبناؤه تجنود في الحروب العثمانية. وكان العراق لا يرغب فيه إلا الصولة إلا المرتسبون والطامعون في جني ضرائبه نظراً لانتزاعه الهائل. كانت الحكومة المحلية حكومة مطلقة، يتصرف فيها الوالي حسبما يشاء. فلم تعد الرحمة موجودة لدى موظفي الحكومة والشرطة. وكان الوالي مسوقاً بدافع نفقاته الباهضة لدوائه إلى الضغف على الشعب عامة بطريقة جائرة (7). وكان تعيين الوالي يخضع لمساومات من يدفَع أكثر من السكان المحليين العراقيين. وهي رشوة واضحة لأن المرشح يدفع مبالغ كبيرة لخباز موظفي الصدر الأعظم ومكتب السلطان نفسه. كما كان يجري تجديد تعيين الوالي سنوياً بشكل تقليدي. إلا إذا كان هناك منافسون يدفعون أكثر أو يجري عزل الوالي لإخفاقه في



بغداد- ضفاف دجلة حيث القنصلية البريطانية سنة 1909



يصف الرحالة الإنكليزي جيمس باكنغهام James Silk Buckingham (1786-1855) (11) الذي زار بغداد في تموز 1816 (1813-1816) فيقول: كان هناك مجلس ساعد المشايخ في اتخاذ بعض القرارات. يخالف المجلس من عدد من كبار ضباط الحكومة. وعدد من رؤساء دوائر الحكومة. ويجتمع المجلس أيام الجمع في الديوان الكبير (مكتب الباشا) للتداول ومناقشة القضايا الهامة. ويؤخذ رأيهم في الأمور التي يترتب عليها نتائج خطيرة. أما مجرى الأعمال لهذه الحكومة فيسير دون تدخل المجلس (12). نائب الباشا وهو سادن الحضرة الخيلانية (من سلالة الشيخ عبد القادر الكيلاني).

التقسيم الإداري تطورت تقسيمات الادارية في العراق بحسب التطور التاريخي والسياسي والولة الحاكمة. ففي عام 1534 م احتل السلطان سليمان القانوني العراق بعد تغلبه على الجيش الصفوي. فقام السلطان بتقسيم العراق إلى (17) سنقاً (كالضرفية)، وأورد ستة سنائج لقيادات الجيش العثماني وهي الحلة وند آداب والجزائر والرماحية وجنغولا وقرداغ. وأصبحت بغداد ولاية تتبعها مقاطعات بغداد والبصرة والموصل، ويحكمها وال يعينه بالسلطان أحياناً. كما كان هناك القاضي الذي يراقب أداء الوالي طوال فترة عمله وهي لمدة سنة واحدة. فيعود ويرفع تقريره إلى كبير القضاة (9).



كان الوالي هو الحاكم المطلق في الولاية (العراق)، يصف الرحالة الأمريكي وليم بيري فوك William Perry Fog (1826-1909) فيقول: إن باشا بغداد هو حاكم ولاية تبلغ ثلاثة أضعاف ولاية نيويورك، وتشتمل على سكان يبلغ عددهم

مقاطعة الموصل في بغداد، وخضعت مدة من الزمن لولاية ديار بكر. وانفصلت بعدها مقاطعة شهرزور وكان مركزها كركوك. وقد استقلت كلتا المقاطعتين فترة ثم أعيدتا إلى حكم بغداد فيما بعد (13). وعندما تولى الوالي العثماني مدحت باشا ولاية العراق كانت تتخالف من مقاطعتي بغداد والبصرة وتنقسم إلى متصرفيات، والمتصرفيات إلى أضية، والأضية إلى نواحي. ويكون المسؤولون التقديديون هم المتصرف والقائمقام ومدير الناحية، كل حسب اختصاصه. قسمت ولاية بغداد إلى سبعة سنائج وهي: 1- بغداد 2- الحلة 3- كربلاء 4- العمارة 5- المنتقى (الناصرة) 6- البصرة 7- نجد (في السعودية الحالية). وكانت البصرة مركز سنق (14) (ونجد) مركز قضاء ثم أصبحت سنقاً مركزها الأحساء. في عام 1880 تم تقسيم العراق إلى ثلاث ولايات هي بغداد والبصرة والموصل. وتتبع كل ولاية مجموعة سنائج



السرايا العثماني- بغداد 1914

ابن فرناس .. ساحة ليست سياحية

كنت في تركيا بدعوة كريمة من نادي التجف الرياضي .. بمدينة افينون التي تبعد عن انقرة اربع ساعات بالسيارة .. وطول الطريق الذي قطعناه برا لم نشعر بالملل .. ليس لجمال الطبيعة فسحب بل لتطوعها من قبل عقل الانسان و ارادة الحكومات وحكمة المجتمع .. اكثر من خمس مئة كم ذهبنا وايبا لم ار شريطاً او مسلحاً .. يقف على جانبي الطريق المزين بانواع جمال الطبيعة وفنون ابداع الانسان .. الشوارع كأنها تحفة مرسومة على الأرض مخظولة بالقلم .. كل عثرة كم تجد محطة بائزين .. تحمل بين يديها كل معاني راحة المسافر .. حيث تضم بين مساحتها الواسعة الخضراء كل مستلزمات الراحة مطعم وأسواق وقهاوي وأماكن للصلاة .. ودورة مياه صحية بغاية الفن التقني والنظافة والاستخدام الجاني بشكل نخلج حينما نتذكر طرفنا واحوالنا والاسواخ التي تحيط بنا من كل جانب ومكان ..

في مدينة اسبارتا الصغيرة الجميلة دعينا لمباراة هناك مع فريق المدينة .. التي تبعد مائتي كم عن مقر اقامتنا في افينون .. كل هذه المسافات الطويلة لم نجد سيطرة ولم زر مسلحاً او موظفاً على الطريق .. كله ازهار وحدائق على الجانبين محمي بقواطع حديدية اجمل ولا متر واحد منها معوج او مكسور .. معزز باشارات المرور الواضحة التي تعبر عن نفسها وترشد الانسان على طريق الخير ببسر .. بعدها دخلنا ملعبها الصغير الجميل المرتب وفقاً لامكانيات مادية بسيطة لكن بعطاء، ومرود كبير .. لم يقتصر على الجانب الرياضي بل تعداه للفت اجتماعية ثقافية فضلاً عن كونه صرح انتمائي لابناء المنطقة وما يحيط بها ..

تسائل بعضنا عند عودتنا على متن الطائرة .. لماذا العراق يعيش عصر الانحدار وهمد المؤسسات وخراب المدن ونهب الخيرات .. لماذا كل جيراننا افضل منا ؟ .. نحتة بيقاننا ونظاماً وتعاطياً مجتمعياً .. لماذا تخرنا عن كل من كانوا يفتنون ان يكونوا مثلاً؟ .. لماذا ولماذا؟ .. أسئلة جلي تدور بلك راس العراقيين وتتناقض ضمائرهم .. الم يقولوا اننا تخلفنا من الدكتوراة .. الم يقولوا ان نظام الفساد وتبيد الثروة ولي بلا رجعة .. الم يعلنا ان العراق الجديد ديمقراطي حرص على ثرواته. ابن نحن من كل هذا ولك ..

فيما كنا تسائل ونحتق حد ارتفاع هستريا المزاج والم الغيرة على البلد .. متقدمة وتحسب لادارة المطار .. لكن المشكلة بدأت حينما تقاطر علينا سواق التاكسيات بشكل مخجل (شوائي) لا يمت بصلة ولا يعبر عن أداء مؤسساتي ولا يقبل عنز فيه .. فكل سائق يحاول جرك الى سيارته .. بصورة مخجلة .. لا نعتقد ان سببها سواق التاكسيات المساكين الذين رمتهم الظروف الى هذه العيشة المتعبة والمذلة أحياناً .. فهم عراقيون يستحقون العيش بكرامة .. تتوجه الى الجهات المسؤولة بضرورة تنظيم العمل خدمة للمسواطين والسواق المساكين وليس لجيوب الاتهائزين ولصوص العراق الجديد ممن ابتلت فيهم مؤسساتنا بكل مكان ..

حسين الذكر

بغداد

لا تكونوا معولاً بيد الفاسدين بعزوفكم عن الانتخابات

مع بداية موسم كل دورة انتخابية للمجلس الوطني ومجالس المحافظات ينقسم الشارع العراقي بين معارضين لها ويثقف على مقاطعة تلك الانتخابات ويحث الناخبين العزوف حتى عن تحديث بياناتهم بحجة ان ما بني على باطل فهو باطل وان المشاركة في الانتخابات هو مساهمة في ترسيخ المحتل وادواته ويعضهم يذهب لابعاد من ذلك في تحريمها شرعاً وليته يسعف الناس بالدليل من الكتاب والسنة !!

وبين من يرى عكس ذلك ويحث الناخب على ممارسة دوره في الالاء بصوته في اختيار الكفأ لممثلي الشعب في المجلسين بعيدا عن الحزبية والخاصة والطبقية عله يتمكن العراق من اللحاق بركب الأمم لكنه يعجز أيضا عن اقتاع الناخب وسوق الدليل له برحابة رأيه... ومع احترامنا الشديد لهذه الآراء المتباينة ادلي هنا برائي المتواضع ناصحا وربما قد لا يستسيغه البعض وانا معذره له لكنه نابع من واقع خاضته قبلنا الكثير من الشعوب التي عانت ويلات الاحتلال والحروب والتطاحن الداخلي بعد ان فرض المحتل عليها حكومات عميلة استمرت عقودا وهذا دين المحتل فهو لا يفرج الا بعد ان يثبت اركانها بذيول لاطول مدة ممكنة. فالهند عانت طويلا بعد استقلالها من الاحتلال البريطاني حتى تعافت منه والمانيا دمرت من بكرة ابوها بعد خروجها مكسورة من الحرب العالمية الثانية ثم بعد عقود نهضت واتحدت بنشورها واصبحت اليوم من الدول العظمى المؤثرة.

وتركيا كبلت بعبود ومواقيف محيطة صارمة بعد انهيار الخلافة العثمانية واليوم وبعد قرن من الزمان تتعافى تماما من اثاره ويفتحمم واليابان والعديد من الشعوب والدول التي لا يتسع المقام لحصرها ... وبالتأكيد فإن هناك عملاً مشتركاً يجمع بين تلك الشعوب كيف لها ان تعافت من المحتل واثاره ونهضت من كبوتها وينت اركان دولها ؟؟ المحتل سادتي الافاضل هدفه الرئيسي بعد ان تضع الحرب اوزارها هو كيفية المحافظة على مصالحه ويحاول دوما ان يسن قوانين ويفرض سياسيات تضمن له ديمومة تواجده ويضعف بواجبه اختار احزابا وقيادات يفتن من خلالها ويمحق دون الاقتراب من مصالحه لكنه في نفس الوقت يعجز عن المسك بجميع مفاصل الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية ومنا ياتي دور المواطن ومن خلال هذه النواذف باليد، بالتغيير حتى وان كان بطيئا لكنه لا يقنط ولا يهجر وهذا بالضبط ما سلكته تلك الشعوب حتى تخلفت تماما من الاحتلال وذيوله.

لتعود الى الملف العراقي فنقول: ان من أسباب استمرار الوجود الكالحة مع كل دورة انتخابية هو: عزوف الناس عن الانتخابات والتي هي احدى النواذف المتاحة للتغيير على ضعفها وللاسف الشديد فإن الكثير من الناس يتوقعون انه وعزوفهم عن تحديث بياناتهم الانتخابية ومقاطعة الانتخابات البرلمانية ومجالس المحافظات فإنهم ويعلمهم هذا سيسقطون العملية السياسية برمتها وسيهولر السياسة هارين خارج البلاد من هول فظلم وهذا ما لم ولن يحدث ابدا !!

لكنه على العكس تماما ومن خلال اربع دورات انتخابية وبفعل المقاطعة غير المتبررة وغير المدروسة وتوجيه من لا يفقه في السياسة ولا في الشرع شيئا يتسلق ويتربع بسببهم في كل مرة اولئك الجيلة والفاسدون !! ليفهم الناخب العراقي ان أمريكا وحلفاؤها لا يسعوا في الوقت المنظور بسد الفجوة العنصرية السياسية في العراق ولا التعديل في فقرات الدستور لان اهدافهم لم تنته بعد!!

وللعلم فإن هامش التغيير في القيادات العليا والتكتلات والكتل الكبيرة التي حصرها غير ابيهه باقي الرؤوس ولا باقي مفاصل الدولة فهي لا تتدخل في فوضى متاة أولا من الإزهاج والنفث والفساد الذي تغذيه الأحزاب والمليشيات وهو سبب ديمومتها وهي تستمد شرعيتها من العزوف الجسامهيري في كل مرة والخونة والفاسدين تحصت قبة البرلمان ومجالس المحافظات اي من الخلل في الية الانتخابات وذلك تابع عن عجز المواطن عن فك الشبورة والتغيير

وافضل ما يثمناه سياسة العراق اليوم هو العزوف الجسامهيري في كل مرة عن الانتخابات لان ذلك اثبت بالملموس انه يصب في مصالحهم لان قانون الانتخابات يصب في مصلحتهم لتبقى نفس الوجوه متصدرة المشهد وان المقاطعة كما جربتموها سادتي سابقا لم تحسن نتائجنا من الوضع الامني او الاقتصادي والخمي ولم تات بالاكسفا والاصلاح ولم تسقط العملية السياسية بل على العكس تماما دورت نفس الوجوه الكالحة وجعلت من الفاسدين والاحزاب الفاسدة في كل تتحكم في مصير الابغية المنسية ..

لذا نصيحة كمتابع للشمان العراقي: الاسراع في تحديث البيانات وعدم مقاطعة أي نوع من الانتخابات وعلى الابواب انتخابات مجالس المحافظات فواجبك الوطني هو الزحف واخستيار من تزونه مناسبا ابراء، لذمتكم امام الهه وذلك اضعف الإيمان في التغيير فذلك هو بصيص الأمل الذي تركه لكم المحتل فلا ترموه بهجل فيطوق عليكم النفق وتلبثوا فيه قانطين الى يوم بيعتوّن..